دور المدارس الابتدائية في تكوين النهضة الإسلامية في كيرالا

محمد بابو المسليار الفيضي كوتو مالا
أمين هيئة تعليم الدين الإسلامي لعموم كيرالا

كيرالا بلدة تقع في جنوب الهند مشهورة في صفحات التاريخ منذ قرون بطبيعتها الجذابة وبمنتجاتها المشهورة التي لاتكاد توجد في سائر البلاد. قصدها الجوالون المشهورون وأشادوا بذكرها في كتبهم، وأثنوا على طبائعها وآدابها. وقد وفد إليها الناس من مختلف بقاع الأرض للزيارة والبياعة. ومن بينهم أمة العرب الذين اشتهروا في تاريخ العالم بجولاتهم التجارية. وكان بينهم وبين أهل مليبار علاقة تجارية منذ قرون. ولما ظهر الإسلام واعتنقت العرب ذلك الدين القويم حملوا نوره ونشروه حيث نزلوا. وكذلك كان بداية انطلاق نور الإسلام في أرض كيرالا.

ومنذ ظهور الإسلام في كيرالا كان أبناء ها المسلمون مزوّدين بثقافته الغراء ومنصتين إلى تعاليمه السامية وقد بدأ النشاط التعليمي في أرجاء كيرالا منذ عهد أولائك الداعين الذين رأسهم مالك بن حبيب رحمه الله. أسسوا مساجد لأداء الصلوات والعبادات وكان من ضمن وظائف المساجد حينذاك نشر التعاليم الدينية وإحياء روح الإسلام في أوساط المسلمين.

ومن حيث أن دين الإسلام لايكون حيا إذا لم تسر روح العلم في عروقه اهتم المسلمون بإحياء العلم ونشره في كل ناحية وما اهتمت الأمة المسلمة بشيئ أكثر مما اهتموا بالتعاليم الدينية عبر القرون. وقد بدأ ظهور هذا الاهتمام البالغ في المدينة المنورة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حيث يحبس جمع من الصحابة أنفسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم للإستفادة من علومه الفياضة ويعرفون بـ"أصحاب الصفة" لما أنهم كانوا يحلقون في صفة المسجدالنبوي. هذه هي أول مدرسة دينية عرفها التاريخ. وكان لها دور كبير في النهضة الإسلامية التي انتقلت

من المدينة المنورة وأخذت تنمو في يد المسلمين وخضعت لهم رقاب الملوك والجبابرة. وفي مر العصور توسع نطاق التعليم الديني وأخذ بتقدم مع تقدم الزمان .

وفي كيرالا التي نحن بصددها انتشرت العلوم الدينية بفضل المساجد التي أسست حسب الحاجة طول البلاد. وقد انجبت كيرالا كثيرا من أعيان العلماء الذين قاموا بخدمة الدين الإسلامي ونشروا تعاليم الدين الحنيف من غير انحراف ولا ابتداع واستمرت أحوال المسلمين في كيرالا على هذه الحالة الهادئة حتى حوالي ألف وتسعمائة وعشرين من الميلادي لم يكن هناك أي انحراف في عقائد الدين ولا اختلاف بين المسلمين في مسائل الدين. ثم ظهرت فرق البدع في بعض المناطق بشؤم الوهابية واضطر علماء كيرالا إلى تكوين جمعية دينية صالحة لإرشاد المسلمين وإثباتهم في النهج القويم وتوطيد أقدامهم في طريق أهل السنة والجماعة وسميت هذه الجمعية بـ"سماستا كيرالا جمعية العلماء " وكان انعقاد هذه الجمعية بحضور جمع من العلماء المشهورين ذوي القدر والجاه عند الله وعند الناس رأسهم السيد المشهور " وراكل مولا كويا تنغال".

وبفضل هذه الجمعية الغراء تمكن مسلمو كيرالا أن يحافظوا على عقائدهم الدينية واستطاعوا أن ينظموا حياتهم حسب التعليم الديني، وكانت المدارس الرسمية الحكومية تقوم بتعليم الدين حتى استقلال الهند من أيدي البريطانيين. ولما ألغت حكومة الهند كل تعليم ديني في المدارس الحكومية تولت "جمعية العلماء" هذا الواجب المهم. ونادت بإنشاء المدارس الإسلامية في جميع أنحاء كيرالا. وكان ذلك مبدأ لحركات المدارس الدينية في كيرالا بنظام تام لايوجد مثله حتى في العالم العربي .

وفي الحفل المنعقد بمنطقة "واداكارا" عزمت الجمعية على تكوين لجنة خاصة تهتم بشؤون المدارس الابتدائية وشكّلت جمعية تحت رعاية العلماء المشهورين. وبدأت تعمل بكل إخلاص، هادفة إلى تعليم أبناء المسلمين وتربيتهم تربية إسلامية. ولم يمض زمن كثير حتى انتشرت المدارس الدينية في كيرالا. وأثرت في مجال التعليم الديني وبدأت تلعب دورا كبيرا في تكوين نهضة اسلامية في حياة المسلمين وعاداتهم.

اليوم بعد مضيّ زهاء خمسين سنة من التأسيس صارت حركة المدارس الدينية التي تشرف عليها "سماستا كيرالا جمعية العلماء" لها قبول حسن لدى جميع المسلمين كما صارت طريقة وحيدة لتعليم أحكام الدين وتربية الأبناء تربية دينية. وقد حظيت لجنة المدارس بقيادة العلماء العبقريين البارزين في مجال التعليم في مر العصور واستطاعت أن تضع نظاما ومنهجا دراسيا يلائم طبائع الأطفال. هذا قد بلغ اليوم عدد المدارس الدينية تحت إشراف الجمعية حوالي تسعة آلاف مدرسة تجري في كيرالا وغيرها من الدول الخليجية وجزيرة "آندمان" وجزيرة "لاكشادويب" وفي سائر ولايات الهند يتلقى فيها العلوم الدينية زهاء اثني عشر الفمائة طالب وطالبة. ويقوم بتعليمهم حوالىمائة الف معلم.

ومما يلفت النظر إليه أن كيرالا ولاية صغيرة في جمهورية الهند ليس لها ايّ امتياز في جانب الدستور على سائر ولايات الهند. ونسبة المسلمين فيها لا يزيد على عشرين في المائة يعيشون بين الكفار والنصارى كما هو حال المسلمين في سائر بلاد الهند ولكن هناك بون بعيد بين أحوال مسلمي كيرالا وبين أحوال مسلمي سائر الولايات الهندية وفروق لاتنكر في فهم تعاليم الدين.

المسلمون في كيرالا يعيشون عيشا دينيا بكل معنى يؤدون واجباتهم الدينية وعباداتهم البدنية مع رعاية شروطها وآدابها. وليس هناك مسلم بالغ لا يدري وجه أداء عبادته المفروضة عليه يعرفون حق الله تعالى وحق بعضهم على بعض. يحتفلون بالأعياد الدينية غير مشوبة بالبدع والخرافات ولايقعون في الشبكات التي نصبتها الفرق الباطلة. وتوجد بينهم إلفة تامة في القضايا الإسلامية العامة. يعظمون ما عظم الله ويحقرون ما حقر الله، يفتخرون بتقدم الأمة وتسوءهم النكبات والمصائب التي تتعرض لها الامة المسلمة في بعض المناطق!

ليس هناك شك أن هذه الظاهرة التي تسرنا كثيرا إنما هو بفضل العلوم الدينية التي حصلوا عليها من المدارس الدينية يجلسون بين الأساتذة وهم أبناء خمس ويشرب في قلوبهم الصغيرة حب الإيمان ومودة الإخوان ويمحق من نفوسهم البغض والحقد والعدوان وبخمس سنوات على الأقل أو سبع سنوات على الأغلب يمتزج قلبهم الصافي بتعاليم الدين الحنيف ويحفظون الآيات من القرآن الكريم ويتعلمون أحكام الفقه وينصتون إلى التاريخ الإسلامي ويتمرنون على العبادات البدنية تحت إشراف

المعلمين. وإذا فرغ من المدرسة يصبح مهذبا ومثقفا بالثقافة الإسلامية. وإذا كان كل فرد من أفراد الأمة هكذا صارت أمة هادئة ذات نهضة دينية لها رغبة تامة في أداء الواجبات والحقوق! وهذه النهضة الدينية هي التي نراها في مسلمي كيرالا نالوها بفضل المدارس الدينية الابتدائية.

والعصر الراهن عصر مليئ بالاضطرابات الطائفية ومليئ بالجلبات السياسية والدينية لايخلو إقليم من الفتن والبلايا، ولا تخلو أمة من المصائب والرزايا. وقد تعرضت الأمة المسلمة للطعن الشديد من قبل النصارى والمستشرقين واليهود. وطعنوا في دينهم وأخلاقهم وعاداتهم. ويتعاونون مع الأعداء على إيصال الضرر إلى المسلمين بكل وسيلة من الوسائل العصرية. يصفونهم بالعنف والإرهاب ويرسمونهم أصل كل انفجارات ويجردونهم من المجتمع الانساني. ويقع بعض المسلمين في بعض المناطق في شبكاتهم ويثورون بلا فائدة ويزعجون من غير عدل ولا انصاف. فيستطيع الأعداء بهذه الطريقة ان يشوّهو وجه المسلمين وأن يرموا الإسلام بافتراءات كاذبة! وهذه الظاهرة مما عمت جميع العالم في العصر الحديث.

وهنا أيضا نرى امتياز مسلمي كيرالا لا يشورون ولا يزعجون بإزعاج الأعداء ولا يسيطرون حسب إشاراتهم ونصائحهم. وهذا مما أفادته الأمة المسلمة في كيرالا بفضل المدارس الدينية التي ربتهم تربية إسلامية وهذبتهم بالثقافة الدينية العالية.

وفي الجملة إن ما يتمتع به مسلمو كيرالا من الهدوء في حياتهم اليومية ومعرفتهم الواجبات على اكمل وجه وائتلافهم فيما بينهم. كل ذلك بفضل المدارس الدينية التي انتشرت في أنحاء كيرالا. فللمدارس الابتدائية دور كبير لا ينكره احد في تكوين النهضة الإسلامية الحديثة في هذه المنطقة.